أسلوب المشاكلة في ألفاظ المكر في نماذج من قصص الأنبياء في القرآن الكريم

تاريخ الإرسال تاريخ القبول
2022/ 12/6 2023/2/19

الدكتور علي أحمد عمران (*)

الملخّص

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن بلاغة أسلوب المشاكلة في ألفاظ المكر في نماذج من قصص الأنبياء، وخصائصها الأسلوبية من حيث المفهوم والدلالة مجيبًا عن أسئلة الدراسة. ويتناول البحث بعد المهاد النظري، مفهوم المكر لغةً ودلالةً، والمكر ودلالاته في القرآن، والمشاكلة لغةً واصطلاحًا، ثم المكر ودلالاته في نماذج من قصص الأنبياء، وما تحمله تلك الأنموذجات من دلالات أسلوبية للكشف عن الملامح الحجاجية البلاغية لأسلوب المشاكلة، وكيف تفرّد القرآنُ الكريم بمنهجٍ دلاليٍّ واضحٍ في شأن استخدام هذه الألفاظ، وتبيان الخصائص الخارجية والداخلية لها، ومعرفة ما تتضمنه تلك الألفاظ من جوانب أسلوبية وحجاجية وبلاغية وفق استعمالاتها المختلفة. وعليه يحاول البحث استثمار المعرفة البلاغية والحجاجية في مقاربة ألفاظ المكر في النّص القرآني وعلى الخصوص في نماذج مختارة من قصص الأنبياء؛ لذلك اعتمدنا على منهج التّحليل الحجاجي الذي يمتلك خلفيات نظرية عميقة، وآليّات مقاربة فعّالة تسعفنا– نحن المشتغلين بالنّصّ القرآني– في فهم الخطاب القرآني، وقد وصل البحث إلى نتائج تضمنتها خاتمته.

الكلمات المفتاحية:المشاكلة، المكر، الأسلوب،الحجاج، قصص الأنبياء في القرآن.

(*) أستاذ البلاغة والأدب والنقد المشارك، الجامعة الأهلية– مملكة البحرين–aomran@ahlia.edu.bh

The method of similarity in the words of deception in examples from the stories of the prophets in the Holy Quran

Dr. Ali Ahmed Omran
Associate Professor of Rhetoric, Literature and Criticism
Ahlia University - Kingdom of Bahrain

Abstract

This research aims to reveal the eloquence of the problematic style of cunning words in examples of the stories of the prophets, and its stylistic characteristics in terms of concept and significance, answering the following questions. The research, after the theoretical section, deals with the concept of cunning linguistically and idiomatically, its connotations in the Qur'an, and problematic language and terminology. Then, it examples cunning and its connotations in examples of the stories of the prophets. And the stylistic connotations and models that reveal the rhetorical features of the problematic method, it explores how the Holy Qur'an is unique in its clear semantic approach to the use of these utterances, clarifying their external and internal characteristics, and knowing the stylistic, argumentative, and rhetorical aspects of these words according to their various uses. Accordingly, the research tries to invest rhetorical and argumentative knowledge in approaching the words of cunning in the Qur'anic text, and in particular selected examples from the stories of the prophets. The argumentative analysis approach is relied upon, which possesses deep theoretical backgrounds and effective approach mechanisms to help those who work with the Qur'anic text in understanding the Qur'anic discourse. The results obtained by the conducted research are included in the conclusion of the paper.

Keywords: verbal similarity, cunning, style, argumentative approach, Stories of the Prophets in the Holy Quran.

مهاد نظري:

نروم في هذا المقال إثبات بعض الآثار البلاغيّة و الحجاجية المستفادة من الآيات التي ترد فيها ألفاظ المكر في القصص القرآني المرتبطة ببعض العناصر اللّغوية في سياقٍ بلاغيٍّ حجاجيٍّ مُعيّن. فقد خصصّنا هذا البحث في آيات المكر في القصص القرآني؛ وذلك لأنّ هذه القصص تقدّم أحداثًا تصّورُ فيها دعوة الأنبياء عليهم السلام أقوامهم إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، فقد برزت معارضات لدعوتهم من قبل الكافرين والمشركين حاولوا المكر بالدعوة وصاحبها مرات، وإيقاع النوازل بهم، وحياكة المكايد والدسائس والخداع لهم. وتبرز أهمِّيَّة هذا البحث الموسوم ب" أسلوب المشاكلة في ألفاظ المكر في نماذج من قصص الأنبياء في القرآن الكريم" في الكشف عن الأسرار البلاغية للمشاكلة والقيمة الحجاجية لها، وأثرها في التّماسك النّصي. فقد جاء هذا البحث للكشف عن القيمة البلاغية والجمالية التي تتسم بها المشاكلة بحيث تطغى على الدّلالة السّلبية لنسبة المكر إلى الذّات الإلهية، ذلك أنّ التّمسك باستخدامها على الرّغم ممّا قد تستثيرهُ بل ما استثارتهُ في الأذهان من الحاجة إلى تسويغ اسناد هذا الفعل إلى الله لا بدّ أن يكون وراءه قيمة بلاغية عالية ترجح استخدامه وتوظيفه. وهذا أمر لم تتعرض له الدِّراسات السّابقة فيما نعلم ولم تكشف عنه بما يبين هذه القيمة العليا لهذا الأسلوب، فالمشاكلة[1] مبحثٌ بلاغيٌّ دقيقٌ من مباحث البلاغة[2] كان له دورٌ بارزٌ في بناء النّص القرآني تركيبًا ودلالةً من حيث حسن نظمه ولطيف بيانه، وروعة أسلوبه.

وإنّ الآيات التي يرد فيها المكر في النّماذج المختارة من قصص الأنبياء تكون مشتملةً على لفظة (مكر) بعينها موجهةً إلى النّاس بغية إقناعهم بفكرةٍ أو ردعهم عن أخرى. فمن خلال إظهار خصائصها الأسلوبية، ومقاصدها الدّلالية تبرز مقاربة المشاكلة البلاغية لهذه المدونة كحلٍّ ناجعٍ يفضّ إشكالات عقدية وفق رؤى منهجيّة خاصّة تنطلق من آراء النحويين والبلاغيين والمفسرين في وظائف هذه المشاكلة البلاغية لتصل إلى المقاربة الحجاجية.

وتبرز جماليات المشاكلة كلونٍ بلاغيٍّ في حسن العبارة وسموٍ في البلاغة، فالمتلقي يتوهّم أنّ المعنى الثاني هو عين الأوّل، بيد أنّه بعد إمعانٍ في النّظر، وتحقيقٍ في الفكر يرى أنّ المعنى الثاني غير الأوّل، فيكون سببًا لتثبيت المعنى وترسيخه في الذّهن. وبذلك يتحقق الغرض من المشاكلة.

ولقد اعتمدنا على منهج التّحليل الحجاجي الذي يمتلك خلفيات نظرية عميقة، وآليّات مقاربة فعّالة تسعفنا– نحن المشتغلين بالنصّ القرآني– في فهم الخطاب القرآني، وظهرت كفاءته أيضًا في كشف مقصديات الخطاب، وطرائق اشتغال المقوّمات الاقناعية فيها. فالتحليل الحجاجي المعتمد– في هذا البحث– على المنجز النظري الغربي والمستفيد من تطبيقات بعض الدارسين العرب[3]، فهذه القناعة

التي تملكتنا دفعتنا بقوة إلى اعتماد منهج التحليل الحجاجي فنهلنا من مدارسه واتجاهاته، واعتمدنا أدواته الإجرائية في تحليل القصص القرآني.

وحاولنا تتبع ظاهرة المشاكلة البلاغية من خلال تفحص بنيتها اللّغوية القائمة على الثنائيات اللفظية المتماثلة، والمتخالفة معنًى، وما يتولّد من ذلك من وظائف ومعاني كبيرة ومهمة [4]، فهي تشكل ظاهرةً أسلوبيةً واضحةً في القرآن الكريم، نحاول كشف هذا المظهر من مظاهر اللّغة العربية، ورصد هذه الظاهرة التي تعدُّ محل اهتمامٍ كبيرٍ لدى البلاغيين والمفسرين فتتبّعنا الموضوع في كتب البلاغة قديمها[5] وحديثها[6]، وكتب التفاسير القرآنية[7].

ويقتضي البحث في هذا الموضوع الوقوف عند مفهوم المكر وأنواعه، ومفهوم المشاكلة وأنواعها تمهيدًا لتفصيل القول فيها استنادًا إلى جملةٍ من العيّنات التطبيقيّة مثلما سيتمّ بيانه لاحقًا.

1- مفهوم المكر لغةً ودلالة:

1-1.المكر لغةً:

قال بن فارس(329هـ) في مقايسه :" الميم والكاف والراء كلمتان إحداهما المكر لتدل على معنيين متباينيين الأوّل: الاحتيال والخداع، والثاني: خدالة الساق(أي الغليظة الحسناء)[8]

أمّا المكر: فهو ضربٌ من النبات الواحد مِكرة، وسميت لارتوائها، وإمّا مُكُور الأغصان فهي شجرة على حده وضروب من الشجر تسمى المُكوّر" [9]، والمكرُ سقيُ الأرض، يقال: امكروا الأرض فإنّها صلبةٌ ثم احرثوها"[10].

وفرّق أبو هلال العسكري(395هـ) بين الكَيدِ والمكْرِ من حيث إنّ المكر مثل الكيد في أنّه لا يكون إلا مع تدبّر وفكر، إلا أنّ الكيد أقوى من المكر، والشاهد أنّه يتعدّى بنفسه والمكر يتعدى بحرف، فيقال: كاده يكيده ومكر به، ولا يقال: مكره، والذي يتعدّى بنفسه أقوى، والمكر أيضًا تقدير ضرر الغير من أن يفعل به، ألا ترى أنّه لو قال له: أقدر أن أفعل بك كذا، لم يكن ذلك مكرًا، وإنّما يكون مكرًا إذا لم يكن يعلمه به، والكيد اسم لإيقاع المكروه بالغير قهرًا سواء علم أو لا"[11]

وقال الرّاغب الأصفهاني(502هـ) في معجمه: "المَكْرُ: صَرْفُ الغَيْرِ عمَّا يَقْصِدُهُ بِحِيلَةٍ، وذلك ضَرْبَانِ: مَكْرٌ مَحمودٌ: وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعْلَ جَمِيلٍ، وعلى ذلك قال: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[12]. ومكرٌ مذمومٌ: وهو أن يَتحرَّى به فِعْلَ قبيحٍ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[13].

وقد ورد تعريف ابن منظور(711هـ) لهذا المصطلح تعريفًا جامعًا مانعًا حيث قال في شأنه: " المكر: هو احتيال في خُفْية، (...) قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[14] (...) والمكر الخَدِيعَة والاحتيال، مَكَرَ يَمْكُرُ مَكْرًا ومَكَرَ به[15].

ومفهوم المكر هو : "ما يقصد فاعله في بطنه خلاف ما يقتضيه الظاهر"[16] وهو يقصد به "صرف الغير عمّا يقصد بحيلة. وهو ضربان: محمود وهو أن يتحرّى به فعل جميل، ومذموم وهو أن يتحرّى به فعل قبيح"[17].

والمكر لا يكون إلا سيّئًا؛ ولكنّه إن كان من جانب الله عزّ وجلّ كان جميلًا، على نحو قوله" والله خير الماكرين" ، وإن كان من جانب البشر لا يكون إلا سيئًا، على نحو قوله تعالى:" ولا يحيق المكر السّيّء إلا بأهله".

ويذكر الراغب الأصفهاني في معجمه أنّ" مِنْ مَكْرِ اللهِ إِمْهَالُ العبدِ وتمكّنُهُ من أعْراضِ الدُّنيا، ولذلك قال أميرُ المؤمنين– رضي الله عنه– عليّ بن أبي طالب:" مَنْ وُسِّعَ عَليه دُنْيَاهُ ولم يَعْلَمْ أنّهُ مُكِرَ بهِ فهو مَخْذُوعٌ في عَقْلِهِ"[18]

وعليه، وجدنا بعد التمحّيص والبحث في معاجم اللّغة أنّ المكر والاحتيال والخداع وردت في اللّغة بمعانٍ متقاربة، وقد ذكَر أهْلُ اللّغة أنَّ المكر بالمعنى السّلبِي هو الأكثر ورودًا والأكثر استعمالًا في اللّغة، أمَّا استعماله بالمعنى الايجابي فغيرُ شائعٍ في الاستخدام اللُّغوي.

2-1 المكر ودلالاته في القرآن:

قال الدامغانيُّ(478هـ) في "قاموس القرآن": أنّ المكر جاءت على خمسة أوجه: تكذيب الأنبياء، فعل الشِّرك، القول، إرادة القتل، الحيلة.

" فوَجْه منها: المكر تكذيب الأنبياء، قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾[19] يعني: يكذِّبوا الأنبياء ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[20]؛ أيْ: عقوبة ذلك تعود عليهم.

الثاني: المَكْر فِعْلُ الشِّرك، قوله تعالى في سورة فاطر ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[21] ؛ يَعني يُشركون بالله تعالى.

الثالث: المكر: القول، قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾[22]، نظيرها في سورة سبأ: ﴿ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾[23].

الرابع: المكر: إرادة القتل، قوله تعالى في سورة غافر ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾[24]؛ أيْ: ما أرادوا، كقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[25] ؛ أيْ: يهمُّون بقتلك، وقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ ؛ يعني يريدون قتْلَك، (ويعصمك الله)، مثلها في سورة النحل: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[26] يعني أرادوا قتْلَ صالِح، (ونَجَّيناه)، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾[27]؛ أيْ: أرادوا قتْلَ عيسى – عليه السَّلام – (ورفعه الله).

الخامس: المكر: الحيلة، قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ﴾[28]؛ يعني: حيلة احتَلْتُم أنتم وموسى – عليه السَّلام[29].

ولقد ورد لفظ المكر مسندًا إلى الله عزّ وجلّ مقابلًا لمكر البشر نحو قوله تعالى:" ويمكرون ويمكر الله"[30] " أي يجازيهم على مكرهم"[31] فهو بمعنى المجازاة.

و من الاستعمالات القرآنية للفظة المكر كذلك قوله تعالى:" قل اللهُ أسرع مكرًا"[32] " أي أقدر على تحصيل المكروه لهم"[33]. فالمعنى إذن هو تحصيل المكروه بأعلى قدرة.

وورد لفظ المكر باستعمال مجازي نحو قوله تعالى:" بل مكرُ الليلِ والنهار"[34] إذًا " أضاف الحدث لظرفه الواقع فيه أي مكرٌ في الليل، والإضافة تكون بمعنى في. والأحسن أن تكون على المبالغة، جعل الظرفين ماكرين مبالغة"[35] .

ومن استعمالات المكر في القرآن الكريم قوله تعالى:"ولا يحيق المكر السَّيِّءُ إلا بأهله"[36] . فالمكر هنا" صرف الغير عمّا يقصده بحيلة من الحيل" "[37].

ويمكننا أن نستنتج أنّ هناك فرقًا بين المكر والخداع والكيد في استعمالات القرآن الكريم، وأنّ أكثرَ استعمالات القرآن للمكر كان على نحو الذّم، وليس على نحو المدح. فمكر الله هو جزاءٌ لما يقوم به الماكرون؛ وذلك لأنّ مكر الأعداء هو الاحتيال، ومكر الله هو ردّ المكر بخذلانهم واستدراجهم ثم الايقاع بهم في التهلكة وهم لا يشعرون.

2-المشاكلة لغة واصطلاحًا:

2-1:المشاكلة لغةً:

الشَّكْلُ بالفتح: الشَّبَهُ والمِثْلُ، والجمع أَشْكالٌ وشُكولٌ[38] والشاكلة الناحية والطريقة والمشاكلة: المضاهاة والمماثلة. والمشاكلة من الأمور: ما وافق فاعله ونظيره ويقال شكلت الطير وشكلت الدابة. وقوله تعالى:" كلٌّ يعملُ على شاكلته" أي على سجيته التي قيدته، وذلك أن سلطان السجية على الإنسان قاهر، والمشاكلة: الموافقة والتشاكل مثله[39].

2-2:المشاكلة اصطلاحًا:

هي " ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا "[40]. وقد عرّفها أحد المحدثين بقوله:" ذكر المعنى بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو قديرًا"[41] فالمشاكلة إذن تدلّ على ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته وهذا لا يتصوَّرُ إلا إذا تكرّر ذكر لفظٍ وأريد به في المرة الأولى أصل معناه وفي الأخرى غير ذلك، فنحن نرى التقارب الجلّي بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي فكلّ منهما دلّ على المصاحبة والتوافق.

والمشاكلة عند البلاغين على نوعين: لفظية وعقلية:

الأوّل: لفظية: تظهر في اللفظ أو المفردات، وهي المشاكلة التي تقع تحقيقًا. كقوله تعالى: " ومكروا ومكر الله" فإنّ إطلاق المكر على الله سبحانه وتعالى لمشاكلة ما معه على سبيل مقابلة اللفظ باللفظ .

الثاني: عقلية: وهي التي" تفهم بالعقل ويقدر فيه المعنى تقديرًا" كقوله تعالى:" وجزاء سيئة سيئة مثلها"[42] فإنّ إطلاق الجزاء حق لا يوصف بأنّه سيئة من اعتدى، فقد سمى الباري عزّ وجلّ جزاء السيئة سيئة مجازًا على سبيل مقابلة اللفظ باللفظ. فالعسكري (395 هـ) في الصناعتين: الكتابة والشّعر في الفصل الرّابع فى المقابلة يقول في: قوله تعالى: وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً ؛ فالمكر من الله تعالى العذاب، جعله الله عزّ وجلّ مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته.

3-المكر ودلالاته في نماذج من قصص الأنبياء

حظي أسلوب القصّ في القرآن الكريم باهتمامٍ بالغ، وبمساحة نصيةٍ تزيد على ربع القرآن الكريم، وهو أمرٌ يؤكّد أهميّة هذا الأسلوب وفاعليته في خدمة الدّعوة الدينية.

لقد اعتمد القرآن في سبيل هذه الدّعوة على وسائل قوليّة كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر، قوة الاستعارة، والرصف الإيقاعي المؤثر، والإحكام النظمي العجيب، والتركيب المقصدي... فالقصّ القرآني هو عنصرٌ مهمّ في بناء الخطاب القرآني ذلك بوصفه خطابَ دعوة دينية، غايتها المحضة أو قل الكبرى بيان الصراط المستقيم الذي يقود المرء إلى التوحيد والإيمان بالخالق.

ولئن كان القصص القرآني قد قورب من قبل إمّا باعتماد على نظرة إعجازية ترى في هذه القصص إلمامًا غيبيًّا بأخبار الماضيين أومعرضًا لمعجزات الأنبياء والرسل فإنّه لا مناص لنا اليوم من مقاربة الموضوع بالآليات التحليلية الحديثة تداولية كانت أم حجاجية أم سردية فهي بلا أدنى شك تسلطّ الضوء على القصة القرآنية المحملة بأسرار النّص المعجز فتقود الفهم إلى أن يكون أكثر تكاملًا، وأوسع إدراكًا لمرامي بنيتها ودلالاتها، وأعظم تآلفًا بين الغرضين الفني والديني.

وهذه المقاربة البلاغيّة الحجاجيّة لهذه الأنموذجات من قصص الأنبياء في آيات المكر ليست تخييلًا حكائيًا هدفه الإمتاع السردي للأحداث التاريخيّة، وإنّما غايتها الكبرى الإقناع بالدّعوة، والدّفاع عنها ذلك كونها وقائع حقيقيّة وأحداث تاريخيّة، فقد أخبر القرآن الكريم أنّها وقعت بالفعل[43]، وهي بهذه الواقعية تأثرُ تأثيرًا كبيرًا في النفوس، فتصبح القصص القرآني حاسمة في توجيهها الدّعوة، وقد ربطها الله بذاته المقدسة(الحق) فقال تعالى:" وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ". [44]

فهذه القصص تقدّم أحداثًا تصّورُ فيها دعوة الأنبياء عليهم السلام أقوامهم إلى عبادة الله الواحد ولذا فقد برزت معارضات لدعوتهم من قبل الكافرين والمشركين والملحدين حاولوا المكر بالدعوة وصاحبها مرات ومرات، وايقاع النوازل بهم، وحياكة المكايد والدسائس والخداع لهم، سنحاول في هذا المبحث الكشف عن تلكم الأسرار البلاغية للمشاكلة والقيمة الفنية لها، وأثرها في التماسك النصي متتبعين بعض القصص القرآني التي ورد موضوع المكر فيها مشاكلة حقيقيةً فقط دون سواها، وسنورد القصص بحسب تسلسلها في القرآن الكريم وهي على النحو الآتي: قصّة صالح عليه السلام، وقصة عيسى عليه السلام، وقصة محمّد(ص) مع مشركي قريش.

3-1- قصة صالح عليه السلام.

قال تعالى: "وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ"[45]

إنّ الزمن المرجعي الذي يؤطّر هذه القصة مختبىء في أحداثها التي ارتبطت بناقة صالح ووليدها، وصالح أحد أنبياء الله الذي أرسل للدعوة إلى توحيده وعبادته في قوم ثمود، وهي أحد القبائل العربية التي تنحدر من أصل أولاد سام بن نوح. وكانت تسكن ما بين الحجاز وتبوك، وكانوا من عبدة الأصنام، فدعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان، فرفضوا واتّهموه بالجنون والسّحر، وطلبوا من صالح معجزة تصدق دعوته أن يخرج من الصخرة ناقة بمواصفات خاصة، فطلب من الله فخرجت من الصّخرة ناقةٌ، وفق شروطهم وأمام أعينهم، فتعجب القوم، وآمن البعض بصالح وهم قلة، والأكثرية استمرت في كفرها، وطلب إليهم صالح أن يتركوا الناقة تشرب من البئر يومًا، وفي اليوم التالي هم يشربون، وطلب أيضًا منهم أن تبقى الناقة بينهم يشربون من لبنها، واستمروا على هذه الحال مدةً من الزمن، وهذا الحدث له دوره الإقناعي إذ يجعلهم يؤمنون بالخالق القوي الذي أوجد لهم من الصخرة ناقةً بشروطهم التعجيزيّة ويصدقون بدعوة صالح عليه السلام، بيد أنّهم تمادوا في طغيانهم فاجتمع تسعةُ نفرٍ منهم، وتحاوروا في قتل الناقة ووليدها، ووصل الخبر لصالح فحذّرهم من عذاب شديد من الله بعد ثلاثة أيّامٍ من معرفة الخبر، فأصبحوا يستهزئون بكلام صالح، وبيتوا النية في قتل صالح، وبعد ثلاثة أيّام جاء الوعد الحقّ. ففي أوّل يومٍ كانت وجوهم مصفرّة، وفي اليوم الثاني كانت وجوهم محمرّة، وفي يوم السبت الثالث كانت وجوهم مسودّة، فلماء جاء يوم الأحد جاءتهم الصّيحةُ من السماء والرّجفةُ من الأرض من تحتهم، فهلكوا عقابًا على عنادهم وكفرهم، ونتيجةً للمكر الذي مكروه؛ لذلك ركز المفسرون على أنّ ما جرى لقوم صالح كان نتيجةً لمكرهم الذي بيتوه لقتل الناقة وفصيلها وقتل صالح عليه السلام يقول البيضاوي في كتابه:" أنوار التنزيل وأسرار التأويل" "وَمَكَرُوا

مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَمَكَرُوا مَكْراً بهذه المواضعة (...) المواضعة. وَمَكَرْنا مَكْراً بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم. وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بذلك، روي أنّه كان لصالح في الحجر مسجدٌ في شعبٍ يصلي فيه فقالوا: زعم أنّه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرةٌ حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمّة وهلك الباقون بالصيحة"[46]

ويبدو الوصف الموظّف في هذه القصة يستهدف رفع درجات التأثير، لأنّه ينطوي على تصور وجوه قوم صالح بعد قتل الناقة وولدها بأشكال مخيفة، وألوان مختلفة، وبمواصفات تخرق اللبّ وتخيف الناظر إليها، وقد فصلّ المفسّرون في ألوان الوجوه ففي اليوم الأوّل مصفرّة، واليوم الثاني محمرّة، واليوم الثالث مسودّة وهو يوم السبت، فلما جاءت صبيحة يوم الأحد جلسوا ينتظرون العذاب المقرّر لهم، فعندما خرجت الشمس جاءت صيحةٌ من السماء ورجفةٌ في الأرض من تحتهم، فهلكوا وكان ذلك عقاب عنادهم وكفرهم.

إنّ الوصف في هذه الآيات الكريمات، كما يحيل على الإفزاع وحتّمية العقاب نتيجة كفرهم ومكرهم السّيء الذي حاق بهم فقد بيتوا أن يقتلوا صالحًا بعد قتلهم الناقة ووليدها قبل الثلاثة أيّام التي وعدهم إيّاها نبي الله صالح، فكان مكر الله بهم أن جعلهم سببا لهلاكهم وهم لا يشعرون. إذن الوصف بهذا الشكل يحيط الحادثة بالتّهويل، فألوان الوجوه تتغّير في ثلاثة أيّام، وبعدها مباشرة تأتي الصيحة من السّماء، والرّجفة من الأرض فالوصف يركّز على وقوعها بهذه الكيفية المثيرة والمخيفة والمفزعة وفي ذلك تقويةٌ لحمولتها الاقناعية. وذكر المفسّرون غدر قوم ثمود وتبيتهم النية على قتل نبي الله صالح عليه السلام بعدما قتلوا الناقة ووليدها، وكيف أن الله جازهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم فقال تعالى:

" وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ (...) وَمَكَرُوا مَكْراً، غَدَرُوا غَدْرًا حِينَ قَصَدُوا تَبْيِيتَ صَالِحٍ وَالْفَتْكَ بِهِ، وَمَكَرْنا مَكْراً، جَزَيْنَاهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِمْ"[47].

3 -2- قصة عيسى عليه السلام

قال تعالى: :"مَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[48] " .

ورد ذكر قصّة عيسى عليه السلام في سورة آل عمران، وقد ركّزت القصّة على قضيّة أساسّية ألا وهي قضّية التّوحيد ونفي فكرة الشّريك والولد وبيان زيف هذه الشبهة، وأكدت أنَّ المسيح عيسى بن مريم بشر، أوجده الله من غير أبٍ، كلمة الله ألقاها إلى مريم فكان عيسى عليه السلام، وكانت الخوارق التي حفّت بمولده وسيرته من عند الله شأنه شأن كلّ الأنبياء الذين أكدوا على " أنّ حقيقة الدين هو الإسلام والإسلام هو الإتباع والاستسلام، وإنّ كلّ شريعة أتى بها الأنبياء، إنّما هي إقرار لمنهج الله وبيان الحلال والحرام (...) في رسالة الأنبياء ويرفض الإتباع ويعكف على منهج الكفر ويظهر من ينصر الله ودين الله بإتباعه الأنبياء وهذا الأمر حصل مع عيسى عليه السلام[49].

فقصّة عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل تبيّن مكرهم فقال تعالى :"مَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[50] " .

والشاهد قوله تعالى:" ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ"، ففي هذه الآية المباركة يكمن جمال المشاكلة اللفظية في قصة عيسى عليه السلام في المباغته التي توهم المتلقي بخلاف ما يتوقعّ من تشابه في المعنى، فإذا به تشابه في اللفظ فقط، فالمكر فعل" يُقصد به ضر أحد في هيئة تخفى عليه أو تلبس فعل الإضرار بصورة النفع ، فمكر اليهود هو تدبيرهم لأخذ المسيح، وسعيهم لدى ولاة الأمور ليمكنوهم من قتله، ومكر الله بهم هو إبطال الله تعالى مساعيهم على الرغم من ظنهم بنجاحها، وهو هنا مشاكلة؛ أي مقابلة مكرهم بخذلانه إياهم، فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكرًا في قوله (ومكر الله)؛ وهذه تسمية للعقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه.

"ومعنى" والله خير الماكرين" أي أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إيّاهم، ويجوز أن يكون معنى "خير الماكرين": أنّ الإملاء والاستدراج الذي يقدّره للفجّار والجبابرة والمنافقون، الشبيه بالمَكر في أنّه حَسَن الظاهر سَيّء العاقبة، هو خيرٌ محض لا يترتّب عليه إلّا الإصلاح العام، وإن كان يؤذي شخصًا أو أشخاصًا، فهو من هذه الجهة مجرّد عمّا في المكر من القُبح، ولذلك كانت أفعاله تعالى منزّهة عن الوصف بالقبح أو الشناعة، لأنّها لا تقارنها الأحوال التي بها تقبح بعض أفعال العباد؛ من دلالة على سفاهة رأي، أو سوء طوّية، أو جُبن، أو ضُعف، أو طَمع أو نحو ذلك. أي فإن كان في المكر قبح فمكر الله خير محض، ولك على هذا الوجه أن تجعل "خَيْر" بمعنى التفضيل وبدونه "[51].

وقالَ عَبْدُ الحَقّ بنُ غَالِبِ بنِ عَطِيَّةَ الأَنْدَلُسِيُّ (ت:546هـ):

" ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى فقال: ومكروا يريد تحيلهم في أخذ عيسى للقتل بزعمهم، ويروى أنّهم تحيلوا له، وأذكوا عليه العيون حتى دخل هو والحواريون بيتًا فأخذوهم فيه، فهذا مكر بني إسرائيل، وجازاهم الله تعالى بأن طرح شبه عيسى على أحد الحواريين ورفع عيسى، وأعقب بني إسرائيل مذلةً وهوانًا في الدنيا والآخرة، فهذه العقوبة هي التي سمّاها الله مكرا في قوله ومكر الله وهذا مهيع أن تسمّى العقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه، وعلى هذا فسّر جمهور المفسّرين الآية، وعلى أنّ عيسى قال للحواريين: من يصبر فيلقى عليه شبهي فيقتل وله الجنة؟ فقال أحدهم- أنا- فكان ذلك، وروى قوم أن بني إسرائيل دست يهوديا جاسوسًا على عيسى حتى صحبه ودلهم عليه ودخل معه البيت فلما أحيط بهم ألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل اليهودي فأخذ وصلب، فهذا معنى قوله: "ومكروا ومكر الله" وهذه أيضًا تسمية عقوبة باسم الذنب، والمكر في اللغة، السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك، بل أن يبطن الماكر ضد ما يبدي، وقوله "والله خير الماكرين" معناه في أنّه فاعل في حق في ذلك، والماكر من البشر فاعل باطل في الأغلب، لأنّه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل، والله سبحانه أشد بطشًا وأنفذ إرادة، فهو خير من جهات لا تحصى، لا إله إلا هو" [52].

3-3-قصة محمّد(ص) مع مشركي قريش.

قوله تعالى:" وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ"[53]

لقد تعرّض النبي الكريم محمّد(ص) إلى مكر الكافرين في آيات كثيرة في القرآن الكريم[54]، بيد أنّ الذي يهمّنا في هذا البحث ما كان المكر فيه مشاكلة حقيقة لا تقديرية فمنها قوله تعالى:" وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ"[55]. فهذه كتب التفاسير تشير إلى اجتماع مشركي مكّة في دار الندوة ذلك الإطار المرجعي الذي يؤطّر قصّة النّبي محمّد(ص)، وما دار من أحداث هذه القصة باجتماع رأيهم على قتل النبي محمّد(ص)، وما بيّتوه، ورصدوه على باب منزله طوال ليلتهم ليقتلوه إذا خرج،" فأخبر جبريل- عليه السلام- رسول الله(ص) وأمره ألا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر عليًّا – رضي الله عنه- فنام في مضجعه، وقال له:" ائْشِحْ بِبُرْدَتِي؛ فإنّه لن يخلص إليك أمرٌ تكرهه"، وباتوا مترصّدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا عليًّا فبهتوا وخيب الله -عزّ وجلّ- سعيهم، واقتصوا أثره، فأبطل الله مكرهم "[56].

وهذه الأحداث لها دورها الإقناعي، إذ يجعل ما وقع على نبيّه الكريم من المكر السيء دليلا على عظيم العناية الربانية، فحماية النبي محمّد (ص) إجراء سردٍ وتدبير؛ لذلك ركز المفسّرون على أنّ ما جرى على مشركي مكة هو مجازاةٌ على مكرهم الخبيث، فقال ابن القيم الجوزي:" والمكر من الخلق خبثٌ وخداعٌ ومن الله عزّ وجلّ المجازاة فسمي باسم ذلك؛ لأنّه مجازاةٌ عليه"[57]

إنّ الوصف الموظّف في هذه القصة يستهدف رفع درجة التأثير؛ لأنّه ينطوي على تصوير ثلاثة أفعالٍ سردية عزم مشركو مكّة أن يمكروا بالنبي محمّد(ص) في دار الندوة، وتحدثت عنها الآية المباركة من سورة الأنفال وهي: التثبيت(الحبس)، والقتل، والإخراج من مكة، وقد فصل المفسّرون في هذه الأفعال الثلاثة فقال بعضهم:" (ليثبتوك) ليحبسوك، يقال: أثبته إذا حبسته، وقال قتادة (ليثبتوك) وثاقًا. وعنه أيضًا وعبدالله ابن كثير ليسجنوك، إبّان ابن تغلب وأبو حاكم ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد، والمكر التدبير في الأمر في خفية والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون"[58].

والوصف في هذه الآية المباركة بالأفعال الثلاثة المضارعة التي هي خلاصة مكر مشركي قريش في الاجتماع الأخير في دار الندوة قُبيل الهجرة؛ لكن الله خير الماكرين" أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرًا، أو لأنّه لا ينزل إلا ما هو حقّ وعدل، ولا يصيب إلا بما هو مستوجب"[59] ، فالوصف بهذه الأفعال الثلاثة المضارعة المستمرّة إذن ما هو إلا استحضار للحالة التي تردّدت فيها قريش في أمر النبي محمّد(ص) ودبّرت فيها المكر بإيقاع الضر خُفية؛ "لأنّ تلك الأفعال مستقبلة بالنّسبة لفعل المكر إذ غاية مكرهم تحصيل واحد من هذه الأفعال"[60]. والوصف بهذه الكيفيّة يحيل على الإفزاع وحتمية الإقصاء لشخص النبي(ص) إما بسجنه، أوتصفيته جسديًّا، أو طرده إلى خارج مكة، فالغاية تحصيل واحدة من هذه الأفعال، وتركز هذه الأفعال على وقوعها بهذه الكيفيّة المثيرة والهيئة الشّنيعة بالهجوم على دار النبي محمّد(ص)، بيد أنّ حكمة الله تقتضي حفظ نبيه(ص) "من الذين تولوا المكر سادة المشركين وكبراؤهم وأعوان أولئك الذين كان دأبهم الطعن في نبوة محمّد(ص) وفي نزول القرآن عليه"[61] ويقابل مكرهم مكر الله الواحد الأحد،" والمضارع في " يمكرون" و"يمكر" الله لاستحضار حالة المكر"[62] وفي هذه المقارنة تقويةٌ لحمولتها الإقناعية، فقد تميّز مسارها الحكائي للأفعال الثلاثة بالتّكثيف والتّركيز والبعد عن التفاصيل السّردية التي لم تكن مقصودة لذاتها، بل كان غايتها استحضار حالة المكر التي كانت عليها قريش، منذرة بمآل الفشل الذي انتهى إليه مشركي قريش، وبهذا التكثيف الحكائي الذي اعتمد على الحسم السريع بعيدًا عن التفاصيل "أصبح الحدث متدافعًا دافقًا مؤكدًا"[63] "وتلك طريقة سرديّة لتركيز المفعول الإقناعي"[64] فالله هو الفاعل الأوّل والأخير، تصدر عنه الأحداث

لتعود إليه، فهو الممسك بالتفاصيل، والحاكم للمآلات، وفي ذلك كلّه عبرة قويّة، وتنبيه دائم مستمرّ من لدنّه للعباد، وهي الخاصية الإقناعيّة العظمى لهذا النّوع من السرد والتنظيم الحكائي في القصص القرآني.

تلكم كانت نماذج استقيناها من قصص القرآن الكريم كان المكر فيها مسندًا إلى ربّ الجلالة أو مضافًا إليه على سبيل المشاكلة الحقيقية لمكر الكافرين؛ لأنّ المكر لا يليق بالله العلي العظيم، فالأصل فيه الجزاء. وإنّما استخدمت المشاكلة على الرّغم ممّا قد توحي به من دلالة سلبية تحتاج إلى تسويغ عند نسبة المكر إلى الذّات الإلهية وتمسّك القرآن الكريم باستخدامها لما لها من قيمة بلاغية وبيانية تضفي على النّص جمالًا مصدره التجنيس وما له من تأثيرات إيقاعية على النّص فما تستسيغه الأذن وتستحسنه أوّلًا ينطبع حُسنه وجماله في الذّهن ثانيًا لأنّ ذائقة الإنسان(المتلقي) مرتبطة في منطلقها بحاسة السّمع ولك في قصة المكر بين محمّد(ص) مع مشركي قريش في قوله تعالى:" وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ" شاهدٌ قويٌّ على هذا التجنيس وتلك المشاكلة بين ما تكرّر من لفظٍ في هذه القصة.

والجناس بوصفه تجانُس لفظتين تشتركان في النّطق والشّكل وتختلفان في المعنى الثّاوي فيهما يثبتُ هذا الرأي ويؤكّده، ويقوّي الفائدة المتعلقة باللفظ الثّاني وإن ضُعفت في نظيره الأوّل. ولئن كانت إعادة اللفظ من قبيل التورية والإيهام عن الفائدة فإنّ هذه الإعادة هي ما به يتحقّق تمام الفائدة. فالجناس لا يستمد قيمته البلاغية والمعنوية من تكرار لفظٍ فحسب؛ وإنّما فضيلته تكمن في اختلاف المعنى مع اللّفظ المُكرّر في الآن نفسه" فالألفاظ خَدَمُ المعاني والمصرَّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته"[65] على حدّ عبارة الجرجاني في معرض حديثه عن هذه المسألة تحت عنوان" القول في التّجنيس" في كتابه" أسرار البلاغة".

والحقيقة أنّ هذه المشاكلة تدخل في باب التّورية أيضًا؛ ذلك أنّ الغموض الذي يرتبط بالمكر المنسوب للذات الإلهية يستثيرُ الذّهن للبحث عن المعنى المحتمل للمكر في هذا السياق إذ إنّه لا يخفى على السّامع أنّ الله لا يمكر بهذا المعنى وهذا يلفُّ المعنى المقصود بلونٍ من الغموض الذي يضفي على المعنى جمالًا ومبالغةً ويستثيرُ الذّهن للتفريق بين المكرين.

4- خاتمة البحث

لقد رمنا في هذا المقال إثبات بعض الآثار البلاغية والحجاجية المستفادة من الآيات الدالة على المكر في القصص القرآني المرتبطة ببعض العناصر اللّغوية في سياق بلاغيّ حجاجي معين،

فقد خصّصنا هذا البحث في نماذج من القصص القرآني. و قد توصلنا إلى مجموعةٍ من النتائج نجملها في الآتي:

- وجدنا بعد التّمحّيص والبحث في معاجم اللّغة أنّ ألفاظ المكر والاحتيال والخداع وردت في اللّغة والاصطلاح بمعانٍ متقاربة، وأنَّ ورودها بالمعنى السلبِي كان أكثر من المعنى الإيجابي، وأنّ أكثرَ استعمالات القرآن للمكر كان على نحو الذّم، وليس على نحو المدح. ومكر الله إنّما هو جزاءٌ لما يقوم به الماكرون.
- من بين أنواع المشاكلة نجد أنّ المشاكلة اللفظيّة هي الأكثرُ ورودًا في القرآن الكريم بينما حظّ المشاكلة التّقديريّة (العقلية) قليلٌ؛ وذلك لأنّ هذا الأسلوب يتوخّى الإبانة والوضوح بينما المشاكلة التقديريّة تحتاج إلى زيادة تأمّل وتفكّر للوصول إلى المراد بالمحذوف الذي يمكن تقديره وتفسيره بواسطة المذكور.
- إنّ المشاكلة موضوعٌ عقديٌ بلاغيٌ بامتياز؛ لأنّ القرآن الكريم يصف الله عزّ وجلّ بأسماءٍ وصفاتٍ عن طريق هذا الأسلوب البلاغي" المشاكلة" فالعقيدة الإسلامية تقوم على أساس الاعتراف بقدرة الله المطلقة في كلّ شيء، وتنزيهه المطلق، فالقرآن يستخدمُ أسماءً وصفاتٍ لا تناسب الذّات الإلهية إلا مشاكلةً، فلا يطلقها عليه إلا في هذا السّياق.
- يكمن جمال المشاكلة في المباغتة التي تأتي بها ألفاظ المكر في القرآن الكريم حتى لقد يتوهّم المتلقي/ القارىء خلاف ما يتوقّع من تشابه في المعنى، بيد أنّ التّشابه يقع في اللفظ وحده دون المعنى. وهنا يكمن السرّ، وينكشف اللغز فإذا المفهوم الأوّل للمكر يختلف عنه المفهوم الثاني.
- إنّ الوصف في الآيات التي ترد فيها لفظة المكر في قصة صالح يحيل إلى الإفزاع وحتمية العقاب نتيجة كفرهم ومكرهم السيء الذي حاكوه وأضمروه بأن يقتلوا صالحًا بعد قتلهم الناقة ووليدها قبل الأيام الثّلاثة التي وعدهم إيّاها نبي الله صالح، فكان مكر الله بهم أن جعل مكرهم سببًا لهلاكهم وهم لا يشعرون. فالوصف يركز على وقوعها بهذه الكيفية المثيرة المخيفة المفزعة. وفي ذلك تقويةٌ لحمولتها الإقناعية.
- يكمن جمال المشاكلة اللفظية في قصة عيسى عليه السّلام في المباغته التي توهم المتلقي بخلاف ما يتوقّع من تشابه في المعنى، فإذا به تشابه في اللفظ فقط، فالمكر فعل يُقصد به ضرّ أحد في هيئة تخفى عليه، فمكر اليهود هو تدبيرهم لأخذ المسيح، وسعيهم لدى ولاة الأمور ليمكنوهم من قتله، ومكر الله بهم هو إبطال الله تعالى مساعيهم على الرغم من ظنهم بنجاحها،

وهو هنا مشاكلة؛ أي مقابلة مكرهم بخذلانه إياهم، فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكرًا في قوله (ومكر الله)؛ وهذه تسمية للعقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه.

- إنّ الوصف في الآية المباركة لقصّة محمّد (ص) بالأفعال الثلاثة المضارعة التي هي خلاصة مكر مشركي قريش في الاجتماع الأخير في دار الندوة قُبيل الهجرة ما هو إلا استحضار للحالة التي ترددت فيها قريش في أمر النبي محمّد(ص) ودبرت فيها المكر بإيقاع الضرّ خُفية؛ لأنّ تلك الأفعال مستقبلة بالنسبة لفعل المكر إذ غاية مكرهم تحصيل واحد من هذه الأفعال. ويقابل مكرهم مكر الله الواحد الأحد الأكثر نفاذًا والأبلغ تأثيرًا والمضارع في "يمكرون" و"يمكر" الله لاستحضار حالة المكر، وفي هذه المقارنة تقوية لحمولتها الإقناعية، فقد تميّز مسارها الحكائي للأفعال الثلاثة بالتّكثيف والتّركيز والبعد عن التفاصيل السّردية التي لم تكن مقصودةً لذاتها، بل كان غايتها استحضار حالة المكر التي كانت عليها قريش، منذرة بمآل الفشل الذي انتهى إليه مشركو قريش، وبهذا التكثيف الحكائي للأفعال المضارعة الذي اعتمد على الحسم السريع بعيدًا عن التفاصيل التي أصبح فيها الحدث مؤكدًا، وبطريقة سردية ركزت على المفعول الإقناعي الذي غايته تحصيل واحدٍ من تلكم الأفعال المضارعة الثلاثة.

ختامًا، نزعم أنّ هذا البحث قد يكون خطوة أولى – لنا أو لغيرنا من المهتمّين بهذه المباحث البلاغيّة – في طريق البحث والدّراسة بصورة أوسع لتطبيق ظاهرة المشاكلة بنوعيها في القرآن الكريم، ودواوين الشّعراء، أو كتب الأدب والأمثال والنّوادر.... إذ نرى أنّ هذه المباحث جديرةٌ بأن تُرفد لها دراسات معمّقة تفصّل القول في مختلف جوانبها الشّكليّة والمضمونيّة، بلاغةً ودلالةً لا سيّما ماتعلّق منها بمسائل المشاكلة والتّجنيس.

5-هوامش الدراسة:

[1]-" في كتاب" معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوُّرها لأحمد مطلوب، ط2، بيروت: مكتبة بيروت ناشرون، ص621- 624 انظر: مادة (م ش ا) تحت عنوان "المُشاكَلَة

[2]-المصدر نفسه، ص 622.

[3]-من أمثال كتاب" الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية" لعبد اللطيف عادل، ط1، مراكش المغرب: مؤسسة آفاق للدراسات والنشر ،2017.

[4]-من أمثال عبدالقاهر الجرجاني في كتابه" دلائل الإعجاز". "

[5]-انظر مثلا كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، والإيضاح للقزويني، والكاشف للزمخشري وغيرهم.

[6]-انظر مثلا: معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها لأحمد مطلوب وغيره

[7]–أبرز كتابين اعتمد عليهما البحث هما: كتاب الكشاف للزمخشري؛ وكتاب التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، لابن عاشور.

[8]–أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الفكر،ج5/ 345.

[9]–الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق مهدي المخزومي إبراهيم السامرائي، ط1، بيروت: مكتبة العلال العربي،ج5/ 370، 2001.

[10]–محمّد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللّغة، تحقيق محمّد مرعب، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج1/ 136، 2001.

[11]– أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، علق عليه ووضع حواشيه محمّد باسل عيون السواد، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، ص290، 2005.

[12]–سورة آل عمران، الآية 54.

[13]–الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ضبطه إبراهيم شمس الدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ص 525، 1997.

[14]–سورة النمل، الأية 50.

[15]–ابن منظور، لسان العرب، ط3، بيروت: دار صادر، 1994، ج5/ ص 183.

[16]– السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، المحقق محمّد إبراهيم عبادة،ط1، القاهرة: مكتبة الآداب،2004 ج1؛ وينظر كتاب "التعريفات" للجرجاني، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2007، ص207.

[17]–محمّد ثناء الله المظهري، التفسير المظهري، بيروت: دار إحياء التراث، 2004، 327/1.التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج1537/2).

18– الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ضبطه إبراهيم شمس الدين، ص 525؛ وينظر:أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي(ت 1094)، الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمّد المصري، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة،1993،ص 771.

123. سورة الأنعام، الآية [19]–

[20]–السورة نفسها، الآية123.

[21]–سورة فاطر، الآية10.

[22]–سورة يوسف، الآية 31.

[23]–سبأ، الآية 33. سورة

[24]–سورة غافر، الآية45.

[25]– سورة الأنفال، الآية30.

[26]–سورة النمل، الآية 50.

[27]–سورة آل عِمران، الآية 54.

[28]–سورة الأعراف، الآية 123.

29– الحسين بن محمّد الدامغاني، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل،بيروت: دار العلم للملايين، ص ص439 –440 1985.

[30]–سورة الأنفال، الأية 30.

[31]–السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق محمّد باسل عيون السود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية،1996، 103/4.

[32]–سورة يونس، الآية 21.

[33]– السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، مرجع سابق، 103/4.

[34]–سورة سبأ، الآية 33.

[35]–مرجع سابق، 103/4.

[36]–سورة فاطر، الآية 43.

[37]مرجع سابق، 4/ 104.–

[38]–الفيروزآباي، القاموس المحيط، ط1، بيروت: داراحياء التراث، 1991، 587/3.

[39]–ابن منظور، لسان العرب، 1/ 112.

[40]– الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق رحاب عكاوي، ط1، بيروت: دار الفكر العربي، ص 268–269.

[41]–إنعام فوّال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، مراجعة أحمد شمس الدّين، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996، ص 649.

[42]–بن عيسى بطاهر، البلاغة العربية: مقدّمات وتطبيقات، ط2، ليبيا: دار الكتاب الجديد، ص344.

43– يقول: محمّد شحرور:" فبيان التنزيل الحكيم أنّ القصص قد جاء عرضًا لأحداث قد وقعت بالفعل" محمّد شحرور، القصص القرآني، بيروت: دار الساقي، ج1، 2012، ص 36.

[44]– سورة هود الآية 120.

[45]–سورة النمل/ الآية 50–51.

[46]– أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمّد صبحي حلاق ومحمّد أحمد الأطرش،ط1، دمشق: دار الرشيد، 2000.

[47]–أبو محمّد الحسين بن مسعود بن محمّد البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط1، بيروت: دار إحياء التراث،509/3.

[48]–سورة آل عِمران، الآيتان54–55.

[49]–القرطبي، الجامع لأحكام القرطبي، 4/ 98.

[50]–سورة آل عِمران، الآيتان54–55.

[51]–ابن عاشور، التحرير والتنوير، 5/ 106– 107.

52-ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمّد، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001، 236/2.

53- سورة الأنفال، الآية 30.

54- نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: سورة الأنعام الأيتان 122-123، وكيف أنّ أكابر مجرمي أهل مكة يمكرون بالنبي الكريم(ص) ويتبع غيرهم مكرهم، ومكر الكافرين منهزم أمام مكر الله وتدبيره، و في سورة النمل، الأيات 67-70، وسورة فاطر، الأية، 10وغيرهم من الأيات الدالة على مكر الكافرين بالنبي محمّد(ص)، وهم مكر وصفه الله بالمكر السَّيِّئ الذي لا يحيقُ غلا بأهله.

55-سورة الأنفال، الآية 30.

56-محمود بن عمر الزمخشري، الكشّاف، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان،1998، 575/2-576 .

57-ابن القيم الجوزي ، زاد المسير في علم التفسير، ط1، المكتب الإسلامي: دار ابن حزم،2013، 1/ 321.

58محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ط1، بيروت: موسسة الرسالة، 2006،7/ 397.

59- الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، 575/2.

60-محمّد طاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ط1، بيروت: مؤسّسة التاريخ، 2008، 81/9.

61-82/9. المرجع نفسه،

62-المصدر نفسه، 82/9.

63-يوسف حطيني، ملامح السرد القرآني، دراسة في أنماط القصد والتلقي والشخصيات والبيئة القصصية، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص12

64-عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، ط1، مراكش: المغرب، ص19.

65- الجرجاني، أسرار البلاغة ، تحقيق محمّد الفاضلي، بيروت: المكتبة العصرية، ص 11، 2009م.

64-عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، ط1، مراكش: المغرب، ص19.

65- الجرجاني، أسرار البلاغة ، تحقيق محمّد الفاضلي، بيروت: المكتبة العصرية، ص 11، 2009م.